تأملات عامة في اللهجات العربية

إن الأستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي بدمشق وكاتب سره وصديقي الأمير جعفر الحسني محافظ دار الآثار بدمشق ، قد رغبا إليّ في أن أشرح في هذه المجلة القواعد العامة للأبحاث التي عُنيت بها ، فقبلتُ هذا الاقتراح بسرور عظيم ، وأنا الآن مبين بإيجاز كيفية فهمي لعلم اللهجات Dialectologie ، ولا سيما العربية منها .

ويحسن بنا أن نعرّف باديَ الرأي علم اللهجات :

إن من النادر أن نجد لغةً تخاطب ، وهي على مساحة متسعة من الأرض ، تحافظ على شكل واحد ؛ والأشكال المختلفة التي تتخذها هذه اللغة في بقاع الأرض المختلفة التي يتكلم بها ساكنوها هي اللهجات لهذه اللغة ؛ وإن إحدى هذه اللهجات ، وإن ارتفعت الى مستوى لغة دينية أو أدبية أو سياسية ، وهو ما يحدث غالباً ، فإن سائر اللهجات الأخرى تعيش وتكون كثيرة في معظم الأحيان ، مثال ذلك لهجة باريس الفرنسية ، فقد أصبحت اللغة السياسية والأدبية لفرنسة بأجمعها ؛ بيد أن اللهجات الأخرى (التي أثرت قديماً تأثيراً أدبياً) قد ظلت حيةً الى يوم الناس هذا ، كذلك وبنسبة أكبر لبثت اللهجات الإيطالية عامة . وكما نجد لهجات ألمانيةً عديدة لا تزال حيةً في ألمانية ، نجد الى جانبها أنّ لغة علمية ، وهي لغة الديوان النمسوي السكسوني ، قد أصبحت اللغةَ الأدبية والرسمية لألمانية كلها . إن هذه الحالة شبيهة بحالة العالم العربي ، فإن اللهجات المحلية لا تزال لغة الخطاب بين معظم الشعب ، على الرغم من وجود لغة كبيرة دينية وعلمية وأدبية : إن اللغة العربية الفصحى (المدرسية) المبني جانب منها على لغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شعرية قديمة كانت في بلاد العرب الوسطى ، والجانب الآخر منها مبني على لهجة قديمة هي لغة الحجاز ، هي اللغة الأدبية التي تعمل بأزاء اللهجات العربية ، ذلك العمل الذي عملته اللاتينية أزاء اللهجات الرومانية المنتشرة بأوروبة في القرون الوسطى .

ولقد نخطئ كثيراً اذا تناسينا استقلال اللهجات بالنظر الى اللغة الأدبية : إن اللهجات الفرنسية هي غير الفرنسية الأدبية وهي فرنسية باريس المتحولة المتكاملة ، وكذلك اللهجات الإيطالية ليست هي اللغة الإيطالية المدرسية التي حولتها الجماعات الشعبية ، واللهجات العربية ليست كذلك مما حوله الأميون عن العربية الفصحى ، فإنها غير مرتبطة بها ، ولذلك ينبغي أن لا نحاول تفسير جميع تلك اللهجات المختلفة بالرجوع الى العربية الفصحى ، وهو ما يخطئ الناس في عمله كثيراً .

وإن الذي ساعد على انتشار هذا الخطإ هو اعتبار : اللهجات لغة فصيحة شوهها الشعب ، ولعل هذا هو شأن اللغة اللاتينية ، ولا ريب أن اللغات الرومانية المختلفة : (البرتقالية والإسبانية والفرنسية والبروفنسالية والايطالية والرومانية) هي اللاتينية المتكاملة برومة ؛ بيد أن الناس يعلمون أن جميع العالم الغربي قد فتح بلدانه سكان مدينة رومة وضواحيها المجاورة ، وكان هؤلاء السكان يتكلمون تقريباً لغة واحدة ، وليس هذا الامر شبيهاً بحالة اللغة العربية ، إذ ليس سكان مكة والمدينة ولا الحجاز هم الذين فتحوا المملكة (الامبراطورية) العربية فحسب ، لاننا نعلم أن معظم قبائل جزيرة العرب قد أعانت على هذا الفتح ، ولهذا نرى نحاة العرب القدماء يذكرون اختلافات عديدة في اللهجات في جوف البلاد العربية القديمة ، فالفتح العربي قد نشر بين الناس اختلاف اللهجات التي كانت في الجزيرة إبان الهجرة .

فإذا عرفت اللهجات بهذه الصورة كان البحث عنها موضوع علم اللهجات ، وفي درس أية لغة من اللغات يجب أن يعنى بعلم اللهجات عناية خاصة ، وعلينا أن نلاحظ أن اللغات الفصحى (المدرسية) ليست إلا جزءاً من الحقيقة اللغوية : ذلك أنه لا نستطيع أن ندرس بطريقة علمية تاريخ اللغة الفرنسية وتكاملها مع الاقتصار على الفرنسية الفصحى وحدها : إن كثيراً من المسائل الخطيرة لا يظهر معانيها إلا بواسطة اللهجات أو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعدفهمها ؛ وإن درس اللهجات بمجاراته لدرس اللغة الفصحى مما يساعد على الاطلاع على جملة اللغة اطلاعاً كاملاً ؛ بل اطلاعاً دقيقاً ، لان اللهجات هي الحقيقةُ الحية ، بينما نرى ان اللغة الفصحي ، وإن كان لها نصيب من التخاطب ، يرافقها شيءٌ من التصنع والتفصح .

إن خطأً كبيراً أن نجعل لدرس علم اللغة أو لاحد فروعها ، وهو بحث اللهجات ، غاية نفعية . ومن الناس من يظن أن هدف علم اللغة أن يميز في اللغة صحيح القول من فاسده ، (وهو هدف النحاة الفرنسيين في القرن السابع ، والهدف الذي رمى اليه من قبلهم نحاة العرب المتقدمون) ؛ ومنهم من يرى — وهو رأي مشتق من المتقدم — أنه يجب أن نختار من بين اللهجات أقربها من الفصحى وأجدرها بالاتباع : إن هذه الآراء ضعيفة ، وتخالف رأينا كل المخالفة .

ليس موضوع علم اللغة المفاضلة بين الأشياء ، فهو لا يعنى بفن الاستبداع Esthétique والجمال ، بل يرى أن أحطَّ اللهجات لا يقل درسها فائدة عن اللغة الادبية المهذبة كما أن بلورة الملح لا تقل عن الماسة في نظر الكيماوي . ان علم اللغة هو علم ومثل جميع العلوم لا يتخذ له هدفاً غير معرفة موضوعه ، وبتعبير آخر غير وصف أحوال اللغة وتطوراتها (علم اللغة القراري Statique وعلم اللغة الحراكي Dynamique وعلم اللغة القراني Synchronique وعلم اللغة اللاقراني Dischronique)

هذا مايقال عن الخطة العامة ، فلننظر مايجب أن ينتهجه علم اللغة العربية ولهجاتها : ان من البين ان العمل الضروري الذي يجب القيام به هو وصف اللهجات وان العربية الفصحى قد درست درساً كبيراً ، ومن الممكن أن نعتبر أبحاث الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات قد نضجت نضجاً كافياً ، وبعكس ذلك لا يعلم الناس من أمر اللهجات العربية إلا قليلا : وإذا كنا نعرف بعض الشيء عن بعض لهجات المدن (كبيروت ودمشق وحلب والقدس والقاهرة) فإنا لا نزال نجهل لهجات القرويين والبدو (وهي في الأغلب أشد بالاصل ارتباطاً ، وبقاعها الجغرافية أشد من غيرها انبساطاً) ان بحث هذه اللهجات مما لا غنى عنه ، لأن تقدم التعليم وانتشار الصحافة وسهولة المواصلات مما زاد انتشار اللغة الفصحي أو لغة التخاطب القريبة منها ، ونرى أمام هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة الجليلة أن اللهجات ولاسيما لهجات القرى والبدو تتأخر ، والأمر يؤول بها إلى الاضمحلال والزوال .

لنتفاهم جيداً ، فإني لا أجد في التفاهم شراً بل خيراً : إن الاختلاف اللغوي شر ، والوحدة اللغوية خير عظيم . واني في حالة العرب خاصة لافهم كل الفهم وأرى من الحق أن يشعر العرب المتباعدة أقطارهم بحاجتهم الى لغة واحدة هي رمز وحدتهم الروحية ، وان هذه اللغة الواحدة لا يمكن أن تكون سوى الفصحى ، وأرجو أن يؤذن لي بضرب المثل الآتي : حينما يوجد أثر قديم من الأبنية ، عديم نفع وقليل جمال ، وهو على قارعة طريق ينتفع الناس بسلوكه ، ولا يستطيعون أن يستعيضوا عنه بغيره ، نجد من الحق الشرعي ان نفادي بهذا البناء وان نهدمه ونزيله عن طريق الناس ، ذلك أن حاجات حياة المدينة تتقدم على الانتفاع بعلم نظري صرف ؛ غير أن علم الآثار يتطلب بحق أن يعنى بتخطيط هذا الأثر القديم ، وان تصوّر منه المواضع الضرورية تصويراً شمسيًا قبل أن يُمحى من الوجود .

ان هذه الحالة لتنطبق على اللهجات العربية ، التي تريد أن تنقضّ وتنقرض ، ولا ريب أن من المفيد انقراضها : إذ لا يرمي علم اللهجات الى المحافظة على هذه اللهجات أصلا ولا الى تجديد حياتها ، وانما يهمه أن توصف وتعرف قبل فقدها . يجب أن نعجل بالأمر : فقد طال في اللغة الفرنسية بنا الانتظار ، وان الابحاث التي يقوم بها علماء اللهجات منذ أواخر القرن الماضي قد تأخرت عن وقتها بعد أن ضاع كثير من الدقائق اللغوية الخطيرة .

وقد عنيتُ بوصف اللهجات العربية منذ بضع سنين ، فبدأت بكتابة وصف نحويّ للهجة التدمرية سنة ١٩٣٢ ، وبعد هذا العمل الاول شرعت في درس اللهجات لجماعات كبيرة : وسأنشر في هذا الخريف بحثًا بعنوان : « تعليقات على بعض اللهجات البدوية في سورية وفلسطين » ، كما اني درست الخطوط الاصلية لمبحث الاصوات والصيغ في نحو عشر لهجات بدوية ، وأنا الآن مهتمٌ بوصف لهجة كورة واسعة ، هي حوران (مع شمال مشارف الشام : شرق الاردن) ، وقد شرعت في هذا العمل منذ ١٩٣٣ ، وسينشر بحثي بلا شك في سنة ١٩٣٨ . كما شرعت في بلاد المغرب في البحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بإيجاز عن الخطوط الكبيرة من لهجات إفريقية الشمالية كلها (طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) ، وأرجو أن ينتهي هذا البحث سنة ١٩٤٠ . ومن المحتمل بعد ذلك أن أهتمّ باللهجات الشرقية ، بحيث أبدأ على الاقل بذلك التخطيط اللغوي للهجات السورية الفلسطينية العراقية ، وهو تخطيط ضروري جداً ، وقد حاولت في هذه الابحاث أن أجمع أفضل وسائل التحقيق العلمي : كالتسجيل في أقراص الحاكي [1] والمقاييس الصوتية الدقيقة .

هذه هي الخطوط الكبيرة للعمل الذي أنا قائم به ، وأرجو كل الرجاء أن يهتم بها الجمهور العربي ، لانها أبحاث تتعلق بلغته ، وأن يشارك بها ولو بعض المشاركة ، فإن كثيراً من الدقائق اللغوية تخفى على الاجنبي الذي ينقصه الاطلاع على روح اللغة أبداً ، ولهذا أتقبل بامتنان كل ما يرسل إليّ من نقد وملاحظة ، لان البحث اللغوي ما زال من بعض جوانبه : عملاً جمعياً لا فردياً .

ج . فانتينو

أستاذ علم اللغة العام والالسنة السامية
في جامعة الجزائر

تعليق

إن مؤلف هذا البحث الممتع قد عني كل العناية باللهجات الشامية ، ولا سيما لهجات بادية الشام ، وقضى ما بين ظهراني البدو زمناً طويلاً ، فكتب ما كتب عن علم وخبرة ، وبحثه هذا يشف عن روح إنصاف طيبة ، فمن الحق أن يجيبه الى طلبه علماء اللغة العربية فيساهموا في البحث عن اللهجات العربية الحية ، وقد قام من بعض الوجوه بواجبه من علمائنا الشيخ رضي الدين محمد بن ابرهيم الحنبلي مؤلف كتاب « بحر العوّام » الذي نشره المجمع العلمي في هذا الجزء من المجلة ، فإنه قد بحث منذ نحو أربعة قرون عن لهجات بلاد الشام الشمالية عامة ولا سيما لهجة حلب وكورها المحيطة بها ، ومنها بلدة « تادف » التي ينتمي المؤلف اليها ، وهنالك ، كما ذكر للمستشرق دلائل جمة على أن اللهجات العامية العربية مصيرها الانقراض ، وإن « الفصحى » أيد الله دولتها ، تزداد على الايام حياةً وقوةً وانتشاراً .

(١) كوانات الفنغراف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net